مثقفون ووزارة.. وتساؤلات

عبد الزهرة زكي

أكثر من دعوة تلقيتها الاسبوع الماضي من أصدقاء مثقفين يتنادون بأصوات مختلفة، ولكن بهدف و احد، هو البحث في أدوار الثقافة والمثقفين في عراق يتغير، و السعي لتأمين أفضل ظروف العمل الثقافي.

شعراء ورسامون وروائيون ومسرحيون ومصورون وصحفيون يلتقون في هاجس واحد: ما الذي ينبغي ان نفعل؟ كيف ينبغي ان نعمل؟

مثل هذا التساؤل ليس متأخراً ..انه ليس جديداً، ليس وليد لحظة راهنة بعد عامين من بركان العراق. إن انخراط الكثير من مثقفي البلاد في وسائل الإعلام الجديد، كان واحداً من إشكال فاعليتهم الإيجابية في الإسهام في صناعة العراق الجديد والعمل على تغييره.

لم يكن ذلك التساؤل بالجديد. لكن المهم فيه الآن هو أن يطرح بشكل جماعي.. مجاميع هنا من المثقفين، وأخرى هناك تلتقي لتفكر بصوت مشترك، وتتساءل بهاجس مشترك عن الراهن وعن المصير.. قبل هذا الشكل الجماعي، كانت الخيارات الشخصية، بعد التاسع من نيسان، هي الحاسمة، وكانت المجموعات الصداقية الصغيرة هي أكبر صيغ العمل الجماعي للمثقفين العراقيين في داخل البلاد الخارجة تواً من بركان.

هذا الشكل الجماعي من العمل، هو وجه من الوجوه المهمة لما يحدث بين المثقفين العراقيين في بغداد الآن. انه تعبير عن الخروج على السلبية التي رزح تحت عبئها المثقفون طيلة عقود الدكتاتورية، حيث كان لأي تجمع أو تكتل ان يقع تحت طائلة المراقبة والمعاقبة، مما مزق حركة الثقافة والمثقفين إلى قطع من تجارب شخصية منعزلة عن بعضها، لتدرأ عن نفسها أخطار التجمع وشبهاته.

ولعل الوجه المهم الآخر لتفكير جماعات المثقفين الآن هو تجاوزهم سلبية أخرى، كانت تتمثل في انتظار المثقفين ما يقرره الجهاز الثقافي للحكومة بصدد تنظيم الحياة الثقافية وأساليب عمل المثقفين، وهو انتظار كانوا مكرهين فيه في ظل الشمولية. يريد المثقفون الآن أن يخططوا لعملهم المستقل عن مؤسسات الحكومة، كما يريدون أن يفرضوا على هذه المؤسسات تكيفها مع حاجات الثقافة والمثقفين، وليس العكس أي امتثال الثقافة والمثقفين لبرامج مؤسسات الحكومة الثقافية.

في مناسبة سابقة، ومع تشكيل أول وزارة للثقافة في العراق الجديد، كنت قد أشرت في استفتاء نظمته ثقافة (المدى) إلى أهمية ان ينقطع المثقفون عن شكل العلاقة التطفلي القديم في صلتهم بمؤسسات الحكومة، وان يقيموا حياتهم وتجمعاتهم ومؤسساتهم المتحررة من أبوة تلك المؤسسات، كما أشرت الى أهمية أن تساعد وزارة للثقافة في دولة ريعية ا لمثقفين في مهمتهم تلك، من خلال دعم المشاريع والتجارب الشخصية والجماعية والتشجيع على ذلك.. وأجد الآن أكثر من ضرورة للتذكير بهذا الذي أعتقد بأهميته، خصوصاً ان المرء ليشم في تفكير وتساؤلات مجاميع المثقفين قلقاً حول مستقبل عمل الثقافة والمثقفين في ظل احتمال تعرض هذا المستقبل دائماً الى التغير الذي تتحكم فيه تبدلات ايديولوجيا الوزراء وأساليب تفكيرهم ونظرهم الى الثقافة.

لا يستطيع المثقفون أن يطمئنوا الى ان تغير الحكومات لن يحمل معه تغيرات (قد تكون دراماتيكية حادة) في استراتيجية عمل وزارة الثقافة، ومن ثم في النظر إلى طبيعة الثقافة بشكل عام في المجتمع، تبعاً لتغير المفاهيم والايديولوجيات والبرامج الثقافية. ومثل هذا الشعور الذي يدفع إلى القلق، لايمكن ان تخفف من حدته إلادارة الديمقراطية التي طبعت عمل الوزارة الحالية منذ لحظة تشكلها وعملها على الإصغاء لآراء ومطالب المثقفين بمختلف اتجاهاتهم، وتنفيذ برامجها بحيادية متجردة من المرجعية الحزبية والعقائدية لوزير يمثل حزبه في الحكومة.

ولعل النجاح الأبرز لهذه الوزارة يكمن في هذا الجانب الديمقراطي الذي عمل في ظل الظروف بالغة التعقيد، ظروف التأسيس وتبعات التخريب الثقافي والإداري والسياسي السابق، وظروف التمويل القاصر الذي تحدثنا عنه في غير مناسبة سابقة، وظروف الأمن وتأثيرها على حرية التحرك والتجمع، وسواها من ظروف أخرى لم تسمح حتماً للوزارة بالتعبير الكافي عن طموحها وأهدافها. وقد تشترك وزارة الثقافة بهذا، مع الكثير من الوزارات الأخرى، ولكن ما يجعل من عمل وزارة الثقافة أكثر شفافية، وبالتالي اكثر عرضة للنقد، هو تعامل الوزارة مع وسط المثقفين وقدرة هذا الوسط على التعبير عن سخطه واحتجاجه ونقده.

يتحدث الكثير من المثقفين الآن عن ضرورة توفر الدستور الدائم على ما يضمن حرية الثقافة، وعدم خضوعها إلى أي تحديد ايديولوجي قد يفرضه (الاستخدام المطاط) لمواد الدستور ذات الصلة، وتستغله أية قوة تصل الى الوزارة لصالح برنامج ثقافي موجه. ولكن نستطيع ان نتحدث ايضاً عن ضرورة استحداث قانون خاص بعمل الوزارة، يكفل لها تجردها من الهوى وتحررها من نزعات الاستبداد، ولا يجعل من برامجها وسياساتها عرضة للتغير مع تغير وزرائها ومسؤوليها.

قد يبدو الفصل بين البرامج والسياسات من جهة وتفكير مديريها ومنفذيها من جهة أخرى فصلاً ينطوي على شيء من التعسف وعلى كثير من اللامعقولية، مادامت البرامج والسياسات الناجحة في نتائجها تتطلب بشراً مؤمنين حقا بأهدافها.. ولكننا لن نواجه مثل هذا الفصل المفترض مادامت وزارة الثقافة ملتزمة بالطبيعة التخصصية الثقافية لعملها ومادامت ملزمة بالنهج الديمقراطي للدولة الذي يأتي بالوزراء ويخرجهم ايضا. وقد قدمت الوزارة الحالية الكثير من ا لأمثلة عن نشاطات ثقافية وعن أهداف ثقافية حققتها تجاوزت معها حدود التفكير العقائدي والسياسي لوزير حزبي، وعبرت عن أفق ديمقراطي وحر يدعو الى التفاؤل ويطمئن قطاعاً واسعاً من المثقفين بمختلف اتجاهاتهم.

ولكن، من أسوأ مشكلاتنا، ان النجاح لا يبعث فينا التفاؤل، قدر ما يدعو الى الخيفة والحذر. هكذا دربتنا السنوات على ان عمر النجاح محدود، غير ان عمر الفشل يطول. هذان الخيفة والحذر هما ما يدفعان بمجاميع المثقفين العراقيين راهناً إلى التنادي والتفكير بروح الجماعة التي سينجم عنها حتماً (لوبي) للضغط المستمر على السياسة الثقافية للحكومة ومراقبتها ومساءلتها. وقد ينجم عنها، مع تطور الحياة المدنية في البلاد، من النشاطات والفعاليات والمؤسسات ما يجعل المثقفين في غنى عن مؤسسات الحكومة وهيكلها الثقافي إذا ما وجدوا في السياسة الحكومية ما يقيد حرياتهم ويعمل على ادراجهم في سياق موجه. ولكن، على الرغم من هذا، تظل مراقبة وزارة الثقافة ومحاسبتها شأناً أساسياً ليس في عمل المثقفين وحدهم وانما عموم الفعاليات الاجتماعية مادامت الوزارة المقياس الأكثر وضوحاً وشفافية للتعبير عن هدف الحكومة وقيمها الثقافية التي تريد. سيتجاوز الأمر هنا حدود المثقفين ليتعداها الى تربية المجتمع وتصنيع ثقافته.

إن من حقنا، بوصفنا مثقفين، أن نشك وان نقلق.. بل ينبغي ان نشك وان نقلق، ما دمنا لسنا متأكدين، حتى الآن، من ضمانات الديمقراطية، تلك التي يكفلها الدستور ويحرسها الشعب. لقد ورثنا شكوكاً حول قدرة السياسيين على لي اللغة واللعب بها والمنافحة صوتيا بالشعارات والنكوص عملياً عنها. وقد يشاطرنا السياسيون أنفسهم هذا القلق كونهم هم ايضاً ضحايا تلك المنافحات والنكوصات واستبداد السلطة..

ان عمل الثقافة الحقيقي هو في قدرتها الدائمة على القلق، ومن ثم قدرتها على الإحتفاظ بوصفها المعارض. قد ينزعج السياسيون، عندما يكونون في موقع السلطة، من مثل هذا الكلام وهذا الدور الثقافي، ولكن المجتمع لا ينشد لدى المثقفين والثقافة غير هذا الدور الذي يحتاج، بقصد تأمين سلامة عمله، الى تعاضد المثقفين ونضالهم من أجل زيادة مساحة حرياتهم وتيسير سبل عمل هذه الحريات، كما يحتاج الى وضوح بليغ في التشريعات والقوانين والاجراءات التي تكفل هذه الحريات وتؤمن فاعليتها.

(أول الحب قمر)

شعر: موفق محمد

في اول ساعات الليل
حين تكون الروح على مرمى حجرمن ساعتها
ينزل الراس من الرمح وياتي جسدي
نازفا ـ يجلس فوق الرقبة
بعد نهار دام ينتقل بين قيامات كبرى
أو صغرى
لا فرق
فهذا الوطن المصلوب على انهار الدم
يسري ولا يهتم
للضفة الأخرى
حيث العراق شماله وجنوبه
ناي على شفة الصغار
غرف من الجنات تجري تحتها الانهار تترى
وكأسي عارية تتوهج سحرا
رفرف القلب لرؤياها وغنى ثم طار
افتح نافذتي فارى طيرا وامراة اخرى
وأراني اعصر خصرا
وفمي يلتقط النجم المتألق في شفة الكأس
وكأسي أمراة في شفتي
فتعانقنا عناقا ابديا
ودخلنا سورة النار ولم نترك من اللذات شيّا
وانا المغلول بالرعب
رأيت الشمس تغرب من عويلي
لكن امراة الطير دليلي
أو ترضين به بعلاً؟
قالت كأسي:
نعم
فهو وكيلي
فأرى أمرا
قلت سلاماً يا أمراة الطير
تزحف الظلمة في رأسي
وكأسي خصرها بين يديا
وأنا الحالم منذ البدء اطوي الارض طيا
علني اعثر في ظل حبيبي
وحبيبي وطن يحمل جذر الارض
كان الآية الاولى
ومفتاحا لمن هز البراقا
قالت أمي
وهي القابلة المأذونة منذ بدء الخلق:
لم اسحب طفلاً
كنت ارى الشمس العريانة تخرج من رحم
الارض
فسم لي وليدي
سأسميه العراقا
أبداً والله ما ننسى العراقا
ان في عينيه نهرين يفيضان رخاءً وانطلاقا
وحقولا تجذب العشاق عتاً واعتناقا
تزحف الخمرة في راسي
وكأسي عفوا وعرسي خصرها بين يديا
ايها القادم في الليل الينا
صلفا كالشمر شيطاناً عتيا
أنا لم اعرفك من قبل
ولم اقصد على الحاجات بابك
فلماذا تقطع الان وريدي ثم تعوي
ايها القاتل لا رأس لدي
كان لي جرم
وجرمي ماله مما براه الرعب في
وانا روح نحيل في عروقي
وعروقي لم تعد تحنو علي
قالت امي
وهي تؤجج نار التنور بدمعتها
لم ار الطفل
ولكن جبينه
قمر يسبح في الشمس
ولم يغمض عيونه
ليرى
شعباً على الالغام يزحف
ثم يبتكر الحياة

السوق

نزار عباس

قال لنفسه: في حياتي السابقة لم ار سوى الصدور العامرة بحب الوطن. ابتسم وهو ينظر الى السكرتيرة التي فتحت ازرار قميصها، عن بدايات صدر مرتفع، وهي تستقبل هواء المبردة المنعش.

التفتت السكرتيرة الى القادم..وكانت في عينها دهشة اذ لم تتوعد دخول احد الى المكتب من دون ان يضغط على الجرس..

- قالت: أية خدمة؟
- قال: هل الاستاذ موجود لطفاً؟
- قالت: نعم، وهل لديك موعد سابق؟

اجاب: ارجو ان تخبريه باسمي، ماجد، صديق قديم.

دخلت السكرتيرة ، ثم خرجت يتبعها عبد العظيم البارودي فاتحاً ذراعيه ضاحكاً: اهلاً بصديق العمر! كانا لا يفترقان طيلة سنوات السجن، سخرية ماجد، ونكات عبد العظيم البذيئة، حتى انهما تعرضا كثيراً للتأنيب من قبل رفاقهم الذين كانوا يصرون على ضرورة التزام السجين السياسي بالرزانة والانضباط.

طلب عبد العظيم من السكرتيرة ان لا تحول اليه أي نداء هاتفي، وغرق في الاحاديث مع صديقه القديم ..قال عبد العظيم: والان اية ريح دفعتك الي؟

اجاب ماجد (ضاحكاً): لا ريح ولا عواصف انما هي الذكريات داعبت ذهني وقلبي، كما تقول الاغنية!

ضحك عبد العظيم، وقام الى ثلاجة صغيرة اخرج بعض القناني من البيرة المثلجة، قال: لندع الشاي والقهوة لايام الشتاء!

قال ماجد: الان يحلو الحديث، وان كنت اتمنى ان نكمل الجلسة في مكان آخر، ثم تابع ضاحكاً: لا اريد ان اجعل من مكتبك باراً.

تحدثا طويلاً عن الماضي البعيد، عن الحاضر ايضاً..

قال عبد العظيم: بعد خروجي من السجن، بدأت من الصفر، ولعلك سمعت بأنني صرت تاجراً والحق انني لست كذلك، انما انا رجل اعمل في السوق، وعندي شيء من المال استطيع ان ابحر به في السوق التجاري المتلاطم الامواج! لا اركب سفينة انما اعوم على خشبة تكفي للانقاذ!

قال ماجد: دعك من هذا يا صديقي، انني اتمنى لك كل خير، فأنت تستحق الراحة بعد تلك السنوات العجاف.

اجاب عبد العظيم: وهل هناك راحة؟ الحيتان الكبيرة تلتهم كل شيء. ولكي تبقى حياً، عليك ان تراوغ، وتسلك كل الطرق، لكي تحصل على بقايا ما تتركه الحيتان! وبالمناسبة، هل تذكر صديقنا "مالك" الذي كنا نسميه " مالك الحزين" لقد سقط ميتاً قبل سنوات اذ بعد خروجه من السجن، دخل السوق معي، وقد اشترك في صفقة كبيرة خاسرة، لم يتحمل الصدمة..ترك امرأة بلا معين، وابنة شابة، هي تلك التي رايتها قبل قليل..انها "ليلى"..الا تتذكرها؟

حاولت ان اساعدها وهي سكرتيرتي الان!

وضع ماجد كأسه جانباً، وهو ينظر باتجاه غرفة السكرتيرة. قال لنفسه: ليلى! من كان يصدق، انها تلك الطفلة التي كانت تحملها امها في موعد المقابلة ايام السجن..وشعر بخجل فأين قاده تفكيره عندما رآها؟ وكيف يستطيع ان ينظر اليها مرة اخرى؟ ملأ كأسه بالبيرة من جديد، واحس بأن ضياعه قد اتسع اكثر، وان الذكريات قد سقطت من جديد، واحاطت به من كل جانب...ذكريات قطعها عبد العظيم بالقول: وما الذي تفعله الان؟

انتبه ماجد الى نفسه وقال: لا شيء..لا شيء، حاولت ان اجد عملاً، وجدته كان مرهقاً، العمر يتقدم، وسنوات السجن تركت اثارها، سمعت عنك، فأتيت اليك، قلت لعل وعسى!

قال عبد العظيم وهو ينظر الى ماجد بتأمل واشفاق : حسناً يا صديقي، ارجو ان تمر علي بعد ايام، كي نتفق على حل ما، ان لدي مبالغ كبيرة اوراقاً تستحق الدفع، بضاعة لم تصل الخ..انها لدى بعض الوكلاء في المحافظات، تذهب مع "ليلى" الى هناك، امنحك نسبة مما تحصل عليه، " ليلى" ذات قابلية جيدة، انت رأيتها طبعاً، وهي تستطيع ان تحصل على ما تريد من هؤلاء الاوغاد!

ساعدها في المهمة، الامر ليس صعباً، لا يكلفك شيئاً، اعتمد عليها في بعض الامور..تخل قليلاً عن المثاليات..هذه هي نصيحتي الوحيدة، السوق لا تعرف ذلك. " ليلى" تتقدم في عملها، واريد ان تكون انت كذلك، هذه هي الحياة...اليس كذلك؟ هذه هي الدنيا! هل تمر علي؟ انني انتظرك.

شعر ماجد بأن الكلمات بدأت تنهمر عليه بلا توقف، وانها تبعث على الدوار، لقد اتى من اجل عمل، أي عمل، ولكن ما الذي يقدمه عبد العظيم؟ ماذا يعني! ماذا يريد؟ السوق.."ليلى"..الحياة، وهل تستحق المسألة كل ذلك؟ وكيف تتقدم " ليلى" في عملها!

اخذت الاسئلة تنهمر على رأسه كما كلمات عبد العظيم. احس بحاجة الى الهواء، تحامل على نفسه، وقام مودعاً، قال: سأمر عليك، تعانقا، ثم خرج.

في طريقه لم يستطع النظر الى "ليلى". نزل السلم، ثم انتهى الى الشارع، كان الهواء حاراً، ولكنه مع ذلك احس بأن الدوار بدأ يزول قليلاً، وان شيئاً ثقيلاً قد انزاح عن صدره، وقرر ان ينسى كل ما حدث.